القانون ميت والقاضي حي

قصة أناتول فرانس

ترجمة : أحمد شكري طوب صقال

قال جان مارتو :

وبعد بضعة أيام كنت راقدا في غابة فنش ، ولم أكن ذقت طعاما منذ ست وثلاثين ساعة .

فأخذ السيد جوان يمسح زجاج نظارته ، وكانت عيناه تفيضان رقة على ما في نظرتهما من حدة ، ثم ألقى على جان مارتو نظرة متفحصة ، وقال يؤنبه :

ـ ماذا ؟ تبقى أربعا وعشرين ساعة لا تأكل ، مرة أخرى ؟

فأجابه جان مارتو :

ـ نعم ، في تلك المرة أيضا كنت لم أذق الأكل منذ أربع وعشرين ساعة . ولكني أخطأت . يجب أن لا يبقى الانسان بغير طعام . انه أمر لا يليق يجب أن يعد الجوع ، كالشرود ، جريمة ولكن الواقع أن كلا من الجريمتين تنطبق عليها المادة ٢٦٩ التي تقضي بالحبس من ثلاثة أشهر الى ستة على من لا تعرف وسائل معيشتهم . ويعرف القانون الشرود بأنه حالة المتشردين الذين ليس لهم مأوى معين وليس لهم سبيل معروف للعيش والذين لا يزاولون حرفة أو صناعة . هؤلاء هم أضرى المجرمين .

فقال السيد برجريه :

ـ من العجيب أن تكون حالة الشرود التي يعاقب عليها القانون بالحبس ستة أشهر ، ثم بالمراقبة عشر سنين هي الحالة نفسها التي صير اليها القديس الطيب فرانسو رفقاءه في سانت ماري ديزانج فاليوم لو جاءت بنات القديسة كلير والقديس فرانسوا ديسيز والقديس انطوان دبادوا ليعظوا الناس في باريس لخاطروا بأنفسهم وتعرضوا للالقاء بهم في عربة السجن وحجزهم في ادارة الضبط . على أنني لست أقصد بذلك أن أشي الى الشرطة بطائفة الرهبان الجوالة الشحاذين الذين يتكاثرون بين ظهرانينا الآن ويثيرون الاضطراب ، فان سبل عيشهم معروفة وهم يزاولون كل المهن .

فقال جان مارتو :

ـ هؤلاء محترمون لأنهم أغنياء ، والشحاذة حق لايحرمه غير الفقراء . فلو قد رئيت تحت تلك الشجرة ،

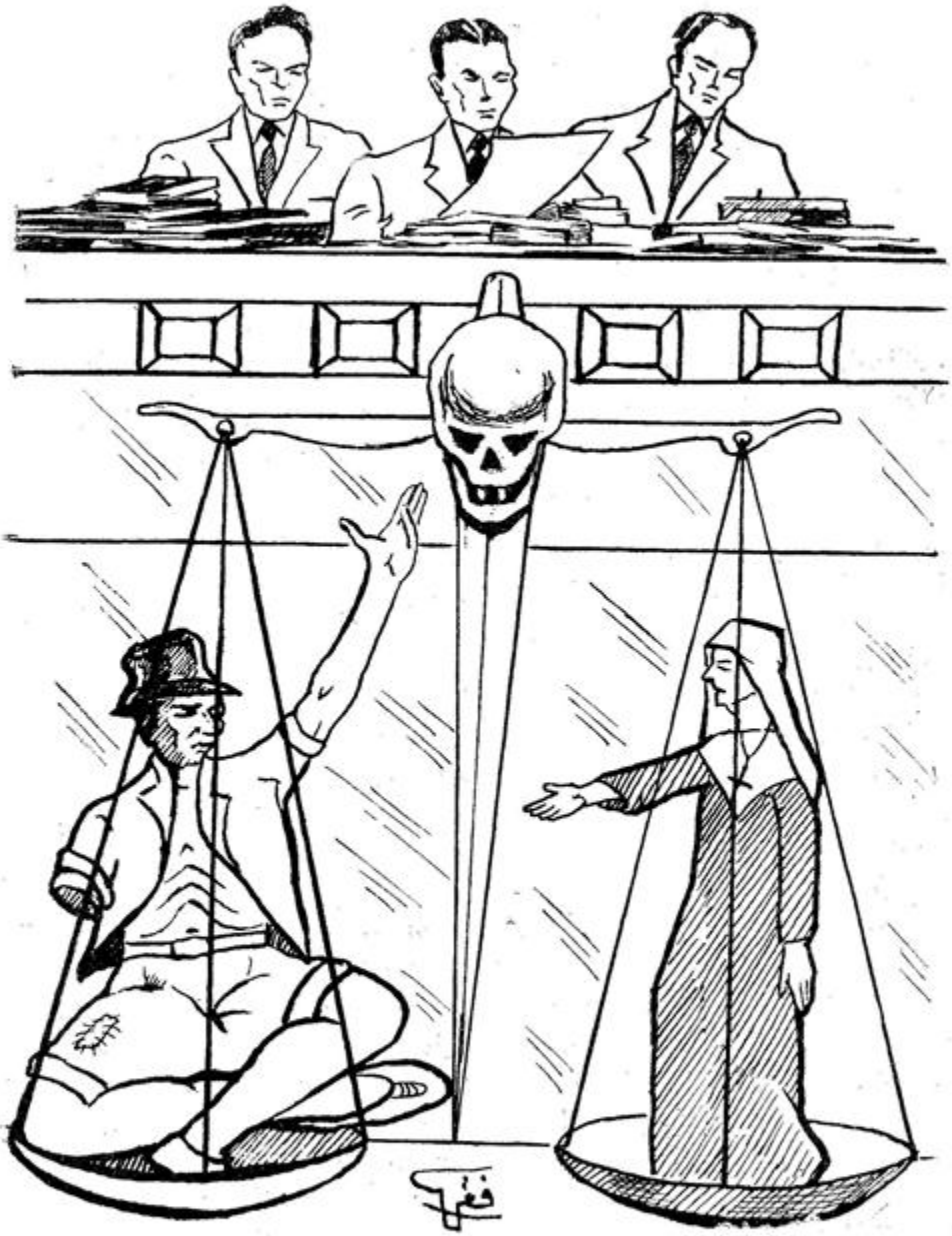

لألقيت فى غياهب السجن ، ولكان ذلك عدلا · فأنا أعد من أعداء الملكية لأننى لا أملك شيئا · والعدل يقضى بحماية الملكية من أعدائها · ان أعظم واجب على القاضى هو أن يؤمن كل انسان على مايملك : يحفظ على الغنى ثروته ، وعلى الفقير فاقته · »

فقال السيد برجريه :

ـ لقد أنعمت النظر فى فلسفة القانون ، فأدركت أن كيان العدالة الاجتماعية يقوم على مبدأين ثابتين : ان السرقة محرمة ، وان ما تأتى به السرقة مقدس · هاتان هما القاعدتان اللتان يصان بهما أمن الافراد ويحفظ النظام فى الدولة · فلئن أنكرنا واحدا من هذين المبدأين الحافظين ، لقد تبدد شمل المجتمع وانحلت عراه · انهما قاما منذ تنفس فجر الزمن : عاد سيد القبيلة وكان رداؤه جلد دب وسلاحه فأسا من الصوان وسيفا من البرنز ، فدخل هو ورفقاؤه المكان المسور بسياج من الصخر ، حيث اوى أطفال القبيلة وزمر النساء وقطعان الوعول · لقد أحضروا معهم شباب القبيلة المجاورة وكواعبها وأحجارا سقطت من السماء ثمينة لديهم لأنهم كانوا يطبعون منها السيوف الصلبة · ارتقى الزعيم ربوة وسط الحظيرة وقال : هؤلاء العبيد وهذا الحديد قد غصبتهم من قوم ضعاف أذلاء ، فهم لى وحدى · أيكم يمد اليهم يدا أضربه بفأسى فيلقى حتفه · هكذا نشأت جرثومة القانون ان روحه قديمة بالغة القدم ووحشية ولما كانت العدالة اقرارا للمظالم جميعا كانت أمنا وسلاما على كل انسان ·

قد يكون القاضى خير النفس ، اذ ليس كل الناس أشرارا · غير ان القانون لا يمكن أن يكون كذلك ، لأنه نشأ قبل كل فكرة عن الخير ، ولأن التعديلات التى أدخلت اليه على مر العصور لم تغير من أصل طبيعته شيئا · نعم لقد أكسبه الفقهاء الشارعون عمقا ولكنهم تركوه وحشيا ؛ بطشه هو الذى يجعله محترما ويكسبه ماله من جلال · والناس دأبهم عبادة الارباب الشريرة : مالا يكون قاسيا ، عندهم ، غير جدير بالاجلال ، والمحكوم عليهم يؤمنون بعدالة القانون ، لا يذهبون فى الاخلاق مذهبا غير مذهب قضاتهم وكمثل قضاتهم يرون أن العمل الذى يعاقب المرء عليه ، عمل يستحق العقاب وكثيرا ما أثر فى نفسى أن شهدت ، فى محاكم الشرطة ومحاكم الجنايات ، الجناة والقضاة يتفقون اتفاقا تاما فى فكرتهم عن الخير والشر ، انهم على سواء فى ميولهم وتحاملهم ، وناموس الاخلاق عندهم واحد ·

قال جان مارتو

لايمكن غير ذلك · ان المسكين الذى يسرق من دكان قطعة لحم أو زوجا من الأحذية تجده ، وهو يفعل ذلك لا يتعمق ولا يتأمل بفكر جرىء فى أصل القانون وأساس العدالة · أما أمثالنا ، الذين لا يهولهم أن يروا فى أصل القوانين اقرارا للعنف والظلم ، فعاجزون عن سرقة مليم

فقال السيد جوبان :

ومع كل ذلك هناك قوانين عادلة

فالتفت جان مارتو الى السيد برجريه فساله :

ـ أتظن ذلك ؟

فأجابه

ـ لقد أصاب السيد جوبان ـ هناك قوانين عادلة ، غير أن القانون مشروع لحماية المجتمع ، فلا يمكن أن يكون فى روحه أعدل من ذلك المجتمع ـ وطالما كان المجتمع قائما عليه ، فالقانون للدفاع عن هذا الظلم وصيانته ـ وأجدر القوانين بالاحترام أشدها ظلما ثم لاحظ أيضا أن معظم القوانين عتيق، ومن أجل ذلك هى لاتمثل تمثيلا صادقا ظلم وقتنا الحاضر ، بل ظلم الزمن الماضى وهو ظلم أقسى وأقبح ـ والقوانين بقية من بقايا العصور المظلمة تسربت الى عصر أكثر منها ضياء ـ

فقال السيد جوبان :

ـ ولكنها تعدل ـ

فأجابه السيد برجريه :

ـ نعم ، انها تعدل ـ تعدل حينما لا يجد الشيوخ والنواب شيئا آخر يعملونه ـ الا أن صميمها باق ؛ وهو مرير ـ اننى فى الحقيقة لا أعبأ كثيرا بالقوانين الفاسدة اذا كانت فى أيدى قضاة فاضلين ـ يقولون ان القانون لا يلين ، ولكنى لا أعتقد صحة هذا القول ، فليس هناك نص لا يحتمل التأويل ـ القانون ميت ، والقاضى حى وفى هذا كان امتيازه ولكن الذى يدعو الى الأسف أن القاضى قلما يستمسك بهذا الامتياز ـ العادة أنه يوطن نفسه على أن يكون أبرد طبعا وأقل احساسا وأشد موتا من نص القانون الذى يطبقه فلا هو انسان ، ولا هو ممن يعرفون الرحمة ، قد أخمدت فيه روح طائفته عواطفه الانسانية ـ

اننى أتحدث الآن عن ذوى النزاهة من القضاة وحدهم ـ

فقال السيد جوبان :

ـ وهم الكثرة ـ

فأجابه السيد برجريه :

« هم الكثرة لو عنينا النزاهة الجارية والاخلاق العامة ـ ولكن هل تكفى النزاهة أن تكون عدة الانسان الذى يجب أن يتولى سلطة العقاب الهائلة دون زلل أو سوء تصريف ؟ يجب أن يجمع القاضى الصالح بين طيبة خالصة وعقل فيلسوف ـ وهذا مطلب صعب ممن يسعى الى تأمين مستقبله ويريد أن يرقى فى سلك القضاء ، دع عنك ما يستثيره من بغض رفقائه له وسخط الناس عليه اذا أظهر من الاخلاق ما هو أعلى من المعروف عند معاصريه ، فاننا نسفه من الاخلاق ما ليس من أخلاقنا ـ وكل الذين جاءوا الناس بشىء من خير جديد ، لاقاهم بالزراية جماعة المخلصين ـ وهذا ما وقع للرئيس مانيو ـ

هذه أحكامه مجموعة فى مجلد صغير مع تعليقات هنرى لبريه ـ حينما صدرت تلك الاحكام أثارت سخط القضاة الصارمين وأفاضل الشارعين ـ انها تنم عن أسمى فكر وأدق نفس ، فهى مفعمة رأفة ، وفيها مروءة ، وفيها فضيلة ـ أما فى دوائر القضاء فقد عدوا الرئيس مانيو مجردا من العقل القانونى ، واتهمه أصدقاء السيد ملين بأنه لا يحترم الملكية حق الاحترام والحقيقة أن الاسباب التى بنى عليها الرئيس مانيو أحكامه كانت فريدة فى بابها ـ لأنك تطالع فى كل سطر

من الآراء ما هو وليد فكر حر ، ومن العواطف ما لا يصـــــدر الا عن قلب كريم .

وتناول السيد برجريه من فوق مكتبه مجلدا صغير الحجم قانى اللون ، ثم قلب صفحاته ، وأخذ يقرأ :

« النزاهة والدماثة فضيلتان أيسر أن يتخلق بهما انسان لا يعوزه شيء من أن يتخلق بهما انســان يفتقر الى كل شيء . »

«لاعقاب على ما لايمكن تجنبه» .

« لكى يكون الحكم على جريمة الفقير عادلا ، يجب على القـــاضى أن ينسى ، وقتئذ ، ما هو فيه من رغد العيش ، حتى يستطيع أن يضع نفسه ، ما أمكن ، فى المأزق الضنك الذى وقع فيه مخلوق قد تنكر له كل انسان » .

« يجب على القاضى حين يفسر القانون ألا يقصر نظره على القضية الخاصـــة المعروضة عليه . بل عليـــه أن ينظر أيضا . من ناحية أعم . فيما قد ينجم من حكمه خيرا كان أو شرا » .

«العامل وحـده هـو الذى ينتج ، وهو وحده الذى يخـــاطر بصحته أو بحيـاته لفـائدة صاحب العمل . أما صاحب العمل فلا يخـــاطر الا برأس ماله » .

وحينذاك قال السيد برجريه وهـو يطوى الكتاب :

ان اقتباسى كاد يكون عفوا لخاطر . انه لكلام طريف ، وانه لصدى ترددة نفس عالية .